الدرس الحادي عشر

قدوة البررة ابو طلحة

اخرج البخاري في صحيحه عن انس بن مالك رضي الله عنه قال : كان ابو طلحة اكثر الانصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان احب امواله اليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال انس فلما انزلت هذه الآية :(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام ابو طلحة الى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ان الله تبارك وتعالى يقول : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وان احب اموالي الي بيرحاء وانها صدقة لله ارجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث اراك الله قال : فقال رسول الله ﷺ:(بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ماقلت واني ارى ان تجعلها في الاقربين) فقال ابو طلحة افعل يا رسول الله ، فقسمها ابو طلحة في اقاربه وبني عمه .

***

بيرحاء ضيعة طيبة الثمر محصولها من التمر كثير ، وواردها كبير ، امتازت بوفرة الماء وبحسن موقعها فهي في مقابلة المسجد ، وهي بجملتها اغلى ما ملك الصحابي الجليل ابو طلحة لم يتأخر عن وضعها تحت امر رسول الله وتصرفه ليفوز بالبر ، فأمره ﷺ أن يجعلها في الاقربين ففعل ، فهل تسعد قرابة الاغنياء والمثرين فينا كما سعدت قرابة ابي طلحة ، فنقضي على فقرهم ومرضهم وجهلهم ونصلي على المصلح العظيم . وبخ كلمة تقال عند الرضا والاعجاب .

لقد غرس سيدنا رسول الله ﷺ في نفوس الصحابة الكرام سجايا فاضلة ، واخلاقا كريمة ، وصفات عالية ، منها ماتتعرض له في شرح هذا الحديث الشريف من مبادرتهم الى امتثال اوامر الله والعمل على وفق مراد رسول الله حتى كان لهم القدح المعلى في ذلك وكأن الله سبحانه وتعالى علم مافي نفوس اصحاب نبيه من حب امتثال الاوامر واجتناب النواهي والسير على وفق مراد الله ورسوله حتى وصفهم بذلك الوصف الحري بهم الجدير بامثالهم بقوله : (واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) وهذا ابو طلحة زيد الانصاري احد الاغنياء والمثرين من اصحاب رسول الله ﷺ ما كاد يسمع قول الله عز وجل :(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) حتى قام مسرعاً الى النبي ﷺ مبرهناً عن ايمان قوي ، وعزيمة صادقة ، ونفس وثابة الى حب الخير وتفان في محبة الله ورسوله ، وامتثال امرهما وهو يقول: يا رسول الله ان الله تبارك وتعالى يقول:(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)وان احب اموالي الي بيرحاء ، وانها صدقة لله ارجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث اراك الله) ، وما كاد ابو طلحة يتم كلامه حتى غدا رسول الله ﷺ معجباً بعمله ، مرغباً في فعله ، شاهدا بصدق ايمانه الذي قد وقر في صدره وغلى في نفسه غلي الماء في المرجل الى ان قال النبي ﷺ كلمته فيه (بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ماقلت واني ارى ان تجعلها في الاقربين) وكيف لايكون ذلك مالا رابحا وعملا مشكورا وتجارة مباركة لايرجى كسادها على مدى الايام والدهور . وقد شهد لك بذلك يا ابا طلحة خير الاولين والآخرين ، وامام الانبياء والمرسلين ، فأعظم بها من شهادة غدوت بها يا ابا طلحة منعم الفؤاد مثلج الصدر محوطا بنعم الله عليك وجزائه الاوفى .

هذا ما كان من عمل ابي طلحة حين سمع قول الله عز وجل: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وهي نموذج من افعال اصحاب رسول الله ﷺ ومبادرتهم

إلى العمل بمقتضى القرآن الكريم ، واقوال السيد الحكيم . وكم من اناس بعد ابي طلحة فاقوه في الثروة والغنى سمعوا صدى هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات المرغبة لهم بثواب الله الدائم ، ونعيمه المقـــيم ، فلم يلقوا لذلك بالا ، وقد اعرضوا عن العمل باحكام الله إعراضا ، وهم مجدون دائبون على جمع الحطام من حل وحرام كأنهم لايرجون ثواب الله ولا يخافون عذابه ، وكأنهم هم الذين عناهم الله بقوله : (فطال عليهم الامد فقست قلوبهم) ندعوه تعالى ان يوفق المسلمين الى العمل بمقتضى الشرع والدين ، حتى يكثر فيهم من امثال ابي طلحة وصحابة النبي الكريم ، فتعود الينا عزة الاجداد ، ونصبح في عداد السادة الامجاد .

الدرس الثاني عشر

فضيلة العلم وقبضه بقبض العلماء

اخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا واضلوا .

* * *

العلماء مصابيح الهداية ، وشموس المعارف ، واقمار الحقيقة ، ونجوم الارشاد، بهم يهتدى الضال ، ويسترشد التائه ، ويستنير الجاهل ، ميزهم الله ببسطة علمهم ووفرة ذكائهم ، وحدة فكرهم ، وسداد رأيهم ، فهم قادة الفكر وأئمة الرأي واطباء النفوس ، القائمون بنشر المعارف والعلوم فيحلون مشكلها ، ويوضحون غامضها ،ويبينون مجملها ، اختارهم الله لميراث انبيائه ، وامانة شريعته ، وقيادة خليقته . قاموا بحق الميراث فأدوا الأمانة ، واحسنوا القيادة . والحق انهم الدواء الناجع ، والترياق الشافي لما استعصى من سيىء الاخلاق والعادات . يهدمون ما اسسته الغوغاء ، واقامه السفهاء ، فأقوالهم فصل الخطاب ، وفعالهم شرعة غراء وصفهم الله باوصاف جليلة حرية بهم جديرة بامثالهم في مواضع شتى وآيات متفرقة تنبيها على علو شأنهم ، ورفعة مكانهم فقال سبحانه : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون — يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتو العلم درجات — شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط). فانظر كيف بدأ سبحانه بنفسه، وثنى بالملائكة،وثلث بالعلماء ، وقال سبحانه يصفهم بالخشية والمراقبة

والخوف والوجل منه : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . وأمر الله نبيه ﷺ ان يدعو بما علمه به في القرآن الكريم (وقل رب زدني علماً) وقال سبحانه ايضاً في تفخيم شأن العلم وقد سماه حكمة بقوله : (ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً) والنبي ﷺ يشيد بمكان العلم وأهله فهو يقول : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) . ويقول : ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع وهو القائل لمعاذ لما بعثه الى اليمن : (لان يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها) .

فكثرة العلماء في الامة ، والتفاف الناس حولهم دليل واضح ، وبرهان ساطع ، وحجة دامغة على مبلغ رقى الامة وتقدمها في حلبة الفضائل والكمال ، كما ان قلتهم وانقباض الناس من حولهم مشعر بانحطاط الامة وتأخرها ، وذلك لاسباب فشو الجهل وقلة العلم ، وبهما يكون الهلاك والعطب ، وهذا ما خشيه السيد الحكيم ﷺ.

فاعظم الفواجع واكبر المصائب موت العلماء وفقد الفضلاء ، وعلى الخصوص اذا لم يتركوا خلفاً يسد فراغهم ، ويشغل مكانهم . وبموت العالم ينطفيء مصباح الهدي ، وينهدم ركن الارشاد ، ويثلم في الاسلام ثلمة لايسدها الا خلف منه . فليغتنم طلب العلم بحياة العلماء ، وليسع لحضور مجالسهم ، واخذ العلم عنهم ، والا لصدر المجالس من ليس باهل ، وأفتى من ليس بينه وبين العلم مصاهرة ولا نسب ، فيم الجهل ، ويعظم الخطب ، وتغير الاحكام فيحرم الحلال ويحلل الحرام وتهدد الامة بالزوال والخسران . فواجب على العلماء أن يذبعوا الاحكام ، ويبينوا الحلال والحرام وليصدعوا بامر الله ورسوله ولا يخشوا في الحق احداً ، فان الله يحوطهم برعايته ، ويكلؤهم بعنايته ، ويعصمهم من الناس . وعلى العامة أن يصغوا لاقوالهم ؛ ويتلهفوا لمواعظهم وارشاداتهم ، وان يأخذوها بالقبول والرضا والتسليم.

الدرس الثالث عشر

الحياء أكمل شعب الايمان

اخرج البخاري في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: الايمان بضع وستون شعبة ،والحياء شعبة من الايمان .

***

شعب الايمان كثيرة ، وخصاله غزيرة لاتدخل تحت عد او احصاء . وانما اراد النبي ﷺ بذكر العدد التكثير ولذا ابهم بقية الشعب ولم يذكرها كاملة ،ومما يدل على ما اردناه ما جاء في الرواية الاخرى (بضع وسبعون) ولو اراد التحديد لم يكن سبيل لهذا التفاوت . وقد تكلف الاجوبة وتجشم المصاعب من يرى أن ذكر العدد إنما هو للتحديد وأن لا منافاة بين الروايتين ، بما لاحاجة اليه ، ولا طائل تحته . وخص عليه السلام الحياء بالذكر من بين الشعب كلها بياناً لاهميته ، وحسن مزيته ، وللاعتناء بشأنه والتخلق به . وفي رواية لمسلم زيادة في بيان بعض الشعب يقول : (فافضلها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذي عن الطريق).

البضع في اللغة القطعة من العدد تجعل لما دون العشرة من الثلاث إلى التسع على الصحيح ،وقيل:غير ذلك،وهو خاص بالعشرة الى التسعين فلا يقال:بضع ومئة وبضع والف قاله الفراء .ويكون مع المذكر بهاء ومع المؤنث بغير هاء .والشعبة: القطعة والمراد بها الخصلة . والحياء تغير وانكسار يعتري الانسان من خوف ما يعاب عليه او يذم،وقد يطلق على مجرد ترك الشيء بسبب،والترك انما هو من لوازمه. وفي الشرع خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير فيه في حق ذي الحق .

والحياء خلق كريم يحول بين المرء ومعصية الله ، ويمنع صاحبه مما يعاب عليه ويذم به ، ولمثل هذه الاوصاف كان الحياء خلقاً محموداً ، وسجية فاضلة لما يترتب عليه من نتائج طيبة ، وثمرات مشكورة ، ومابالك بخلق يكف صاحبه عن الاسترسال في شهوات نفسه وملذاتها ، ويكون حاجزاً منيعاً وسداً حصيناً بين الرجل وبين ما يجول في فكره ، ويتردد في خاطره من القيام بالجرائم الموبقة ، والذنوب المهلكة ، والاعمال الشائنة المخلة بالآداب العامة ، وانظمة الحياة وقوانينها ، فيدافعه خلق الحياء حتى يرجعه الى جادة الحق والصواب ، ويقلع عن كل ما اعتزم من الشر والآثام . فأعظم به من خلق كريم تخلق به السيد الحكيم ﷺ ، ومما ورد في وصفه عليه السلام انه كان شديد الحياء والتواضع ، وكان أشد حياءً من العذراء في خدرها ، ولذا امر ﷺ بالتخلق به في احاديث كثيرة واقوال بليغة منها قوله : (الحياء خير كله) . وفي حديث البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الانصار وهو يعظ اخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ : دعه فان الحياء من الايمان . والحياء من خصائص الانسان ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشتهي فلا يكون كالحيوان الأعجم ، وقد يتولد الحياء من الله تعالى من التقلب في نعمه فيستحي العاقل أن يستعين بها على معصيته ، ومما اثرعن بعض السلف قوله : حق الله على قدر قدرته عليك ،واستحي منه على قدر قربه منك) ومما يؤيد هذا المعنى ماجاء في الحديث الصحيح عن النبي عليه السلام : (اعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) ومما جاء في معنى الحياء ماخرجه الترمذي عنه ﷺ أنه قال : (استحيوا من الله حق الحياء، قالوا : انا نستحي والحمدلله فقال : ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء) .

وليس الحياء كما يفهمه بعض الناس على غير وجهه الصحيح ، ومعناه الحق ، وذلك كالحياء المانع صاحبه عن قول الحق والمجاهرة به،او عن القيام بفرائض الله

واحياء شعائر الاسلام ، او التجمل بالعمل بسنة النبي عليه السلام ، او عن تركه التفقه في الدين ، وتعلم الاحكام الشرعية الواجب معرفتها على كل مكلف من المسلمين ، فليس ماذكرناه من الحياء في شيء وانما هو عجز ومهانة ، وجبن وحقارة ، وتسميته حياء على سبيل المجاز لمشابهته الحياء الحقيقي . وقد اثنت ام المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها على نساء الانصار فى الصحيح انهـا قالت : رحم الله نساء الانصار لم يمنعهن الحياء ان يسألن عن أمر دينهن ، وأن يتفقهن في الدين . وروى البخاري عن إم سلمة أنها قالت : جاءت ام سليم الى رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله : ان الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة غسل اذا احتلمت ، فقال:نعم اذا رأت المـاء) . ومن توبيخه عليه السلام على سبيل التهديد قوله : (اذا لم تستح فاصنع ماشئت) يعني اذا لم يكن لديك حياء يحول بينك وبين ما تشتهي من محارم الله تعالى . فاصنع ما بدالك فانك مجزي به (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

الدرس الرابع عشر

النميمة وترك التنزه من البول

اخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة او مكة ،فسمع صوت انسانين يعذبان في قبورهما فقال النبي ﷺ : يعذبان ، وما يعذبان في كبير ، ثم قال : بلى ، كان احدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة . ثم دعا بجريدة رطبة فكسرها كسرتين فوضع على كل قبر منها كسرة فقيل يارسول الله : لم فعلت هذا ، فقال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا .

***

المعاصي محارم الله التي نهى عباده المؤمنين أن يقربوها ، وأن يتعدوا حدودها ، وقد بين النبي ﷺ غب معصيتين ذميمتين ، وخصلتين قبيحتين يغفل عنها ، ولا يحترز منها كثير من الناس . وذلك بينما كان النبي ﷺ في بعض طرق المدينة ومفاوزها إذ (مر بحائط) أي بستان (من حيطان المدينة او مكة) وفي رواية الدارقطني عن جابر أن الحائط كان لام مبشر الانصارية وكان بالمدينة (فسمع صوت انسانين يعذبان في قبورهما) ولم يسمهما النبي ﷺ ستراً لهما وخشية من الافتضاح ،وكانا مؤمنين إذ لو كانا كافرين لم يدع لهما بتخفيف العذاب ، ولم يترج لهما ذلك(فقال النبي ﷺ يعذبان،وما يعذبان في كبير) عند الناس أي لا يعدونه كبيراً، أو ليس بكبير في مشقة الاحتراز فلا يشق عليهما الاحتراز منه (ثم قال بلى) انه كبير عند الله ، وذلك بقربان المعصية ، واستصغار الذنب

واحتقاره ، وعدم المبالاة فيه ، ثم بين عليه السلام نوع المعصيتين بقوله : (كان احدهما لايستتر من بوله) أي لا يتوق من بوله فتفسد طهارته وتبطل عبادته . وفيه وعيد شديد لمن لايحترز من بوله أو يترك الاستنجاء أو لايبالي في كشف عورته للناس ، وكل هذه الافعال مخلة بالعدالة الشرعية المطلوبة ، ومزرية بالمرء بين خلانه واقرانه (وكان الآخر يمشي بالنميمة) بين الناس ، فينقل كلام الناس بقصد الاضرار والافساد ، اما ماالتضى فعل مصلحة أو ترك مفسدة فهو مطلوب .

والنميمة من الكبائر التي هول في شأنها النبي عليه السلام في احاديث كثيرة ومواعظ بليغة فمن ذلك مارواه الشيخان وغيرهما عن حذيفة قال : سمعت النبي ﷺ يقول :(لايدخل الجنة قتات ، وفي رواية نمام)وقال تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم) فنهى سبحانه وتعالى عن طاعة من هذا وصفه ، والهماز الطعان العياب المغتاب الذي يمشي بين الناس بالوشاية والافساد ، وقصد الاضرار ، واشعال نار الفتنة وإذكاء لهيبها ، فما رأيك بمن يجعل من الاخوين عدوين ، ومن الصديقين بغيضين ، ومن الزوجين متنافرين ، ومن القبيلتين خصمين . وقد أمر الله سبحانه بالتريث والتبين في قول هذا القائل والتثبت مما ينقله من اخبار ويمشي به من فتن قال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) . والحق ان النمام عضو فاسد في المجتمع يجب اقصاؤه وابعاده وعدم الاصغاء اليه فيما يقول فمن فعل ذلك كفي شرهم ،ووقي اذاهم ، والله المسئول أن يكفينا شرهم ، ويبعد عنا ضرهم ،(ثم دعا) عليه السلام (بجريدة رطبة) من جريد النخل وهي التي عليها ورق (فكسرها كسرتين) شقها نصفين (فوضع على كل قبر منها كسرة فقيل يارسول الله لم فعلت هذا فقال: لعله ان يخفف عنها ما لم ييبسا ، ويؤخذ من ذلك ندب وضع الجريد ونحوه مما كان رطبا على القبر ، والحكمة في تخصيص الرطب بدل اليابس أنه يسبح الله تعالى ما لم يجف فلعله يكون سبباً في رفع العذاب عن أهل القبور كما رجاه ﷺ .

الدرس الخامس عشر

نعمة المال والعلم

اخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : لاحسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالافسلط على هلكته في الحق . ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها .

* * *

الحسد داء عضال ، ومرض قتال ، وآفة شائنة ، ورذيلة ممقوتة ، وخصلة مزرية اذا استحكمت بالمرء وتمكنت منه وقوي عضدها ، واشتد ساعدها خشي على حياة صاحبها لما تورثه من حزن دائم وتفكر طويل وهم عظيم .

وكيف لا يكون الحسد من الدناءة والخسة كما وصفنا واضعاف ما ذكرنا والحسود يحسد من لا ذنب عليه ولا خطيئة له ويبقى في حالة الحزن والكمد يهيج صدره حنقاً ، ويتسعر فؤاده غيظاً يتمنى زوال النعمة عن اخوانه ، ويكره لهم الخير ويضمر لهم السوء والشر وقد نهى الله عنه بقوله:(ولاتتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض في الرزق) وامر الله بالتعوذ منه بقوله : (ومن شر حاسد اذا حسد) وفي هذا الحديث اطلق الرسول الاعظم ﷺ الحسد واراد به الغبطة من اطلاق اسم المسبب على السبب ويدل على هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ فقال: (ليتني اوتيت مثل ما اوتي فلان فعملت بمثل ما يعمل) حيث لم يتمن السلب بل أن يكون مثله وعلى هذا فالاستثناء متصل والمعنى لاحسد محمود اي لا ينبغي الاغتباط

الحسد في اللغة : تمني زوال نعمة الغير عنه اليه او الى غيره وقد يضيف الى التمني السعي في زوالها . والغبطة ان يتمنى مثلها مع بقاءها على صاحبها .

الا في هاتين النعمتين . واذا كان الحسد كله شراً يجوز ان يكون من قبيل الاستثناء المنقطع يعني فلا حسد مباح مطلقاً ولكن هناك نعمتان محمودتان ليستا من الحسد المذموم . وهاك بيان النعمتين .

النعمة الاولى : رجل آتاه الله مالا فلم يكن مقتراً وخسيساً ، ولا شحيحاً وبخيلاً ، يضن على نفسه بالانفاق ، ويمنع حق الله منه ، ولم يكن مبذراً مسرفاً ينفقه في شهواته ، والتمتع بملذاته بما هو محظور في الشرع الحنيف ، والملة السمحة . وانما كان مثاله مثال العاقل في تصرفه ، الحازم في رأيه ، ينفقه في طرق البر والخير . وذلك كعمارة المساجد ، وإشادة المدارس النافعة ، واقامة المستشفيات ، واعانة المنكوبين ، ومواساة البائسين ، وصلة الفقراء والارامل والايتام ، والعطف على ذوي الحاجات والعاهات ممن لا يستطيعون القيام بشؤونهم ، وكسب ما يقوم بأودهم ، والمساهمة في الشركات النافعة ، والجمعيات الخيرية العاملة وغيرها من انواع البر الكثيرة على ما أشارت اليه الآيات القرآنية كقوله تعالى : (وآتي المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين في الرقاب) الى قوله : (اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وكقوله سبحانه ايضاً : (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) فمن كانت هذه اعماله ، واوصافه واحواله ، يحق لكل فرد أن يغبطه على ما اولاه الله من نعمة ، واجرى على يديه من خير وفير .

النعمة الثانية : رجل وهبه الله نعمة العلم ، وقوة الفهم ، وآتاه الحكمة فهو يقضي بها بين المتخاصمين ، ويجيب السائلين ، وينشر انواع العلوم والمعارف بين طبقات الامة وافراد الشعب يدعوهم الى الاخلاق الكريمة ، والصفات النبيلة ، والسجايا الفاضلة ، والمزايا العالية فيحسن لهم الحسن ليتبعوه ، ويصور لهم القبيح بأشنع الصور ليجتنبوه ، شعاره قول الله تعالى : (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) فلا تفتر همته ، ولا يكل ساعده في الدعوة الى الله ، وتبيين

احكامه فيحلل حلال الله ، ويحرم حرامه ، يقف عند امره ونهيه ووعده ووعيده . أقامه الله سيفاً مسلولا من سيوف الحق على الملحدين الضالين فهو يقمعهم بالحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة ، والادلة القاطعة ، فيرد كيد الكائدين ، وشبه المبطلين ، وخرافات المبتدعين من اهل الزيغ والضلال . فهذا جدير بالغبطة والتمني وفي مثله يقول الله تعالى : (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولو الالباب) .

هاتان هما النعمتان الجديرتان بالتمني الخليقتان بالغبطة ، فهما أس الفضائل ، وينبوع المكارم والكمال ، وعليهما يترتب حسن الحال والمآل .

الدرس السادس عشر

الدين ومغبته

اخرج البخاري في صحيحه عن سلمة بن الاكوع رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ اذ أتي بجنازة فقالوا صل عليها، فقال: هل عليه دين قالوا: لا، قال: فهل ترك شيئاً قالوا: لا فصلى عليه ثم أتي بجنازة اخرى، فقالوا يارسول الله، صل عليها، قال: هل عليه دين قيل: نعم قال: فهل ترك شيئاً قالوا: ثلاثة دنانير فصلى عليها، ثم أتي بالثالثة فقالوا: صل عليها قال هل ترك شيئاً قالوا: لا . قال فهل عليه دين قالوا ثلاثة دنانير قال: صلوا على صاحبكم قال: ابو قتادة صل عليه يا رسول الله وعلي دينه، فصلى عليه .

***

لا يستدين العاقل ولديه سعة في المال ومجبوحة في العيش وانما يستدين بقدر الحاجة لضرورة تاجئه وحاجة ملحة تدعوه لذلك . ولهذا نرى السيد الحكيم ﷺ يزجر الصحابة الكرام عن المدين بقوله وفعله ويبين لهم مغبته .

وها هو ذا النبي ﷺ يتوقف عن الصلاة على الجنازة — كما سنعرض له موضحاً ان شاء الله — لما علم ان صاحبها مات ولم يترك شيئاً يقوم بوفاء دينه . واداء ما استحق بذمته لغرمائه . وانما امتنع النبي ﷺ عن الصلاة على هذا الميت وأمثاله لغرض شريف وغاية نبيلة ومقصد حسن يتوخى منه الرسول ﷺ تنفير الصحابة من الدين وزجرهم عن المماطلة في الحقوق وليسارعوا لاداء ما استحق عليهم وتوجب في ذممهم لغرمائهم .

واول ماينبغي ان يستحضره المستدين عند اخذ المال من الدائن العزم على الوفاء عند الاستحقاق او توفر المال لديه . ومن أخذ اموال الناس بهذه النية فلا شك ان الله يهيىء له الاسباب المؤدية والسبل الموصلة للكسب والربح فيدرك امنيته ويبلغ غايته . واما من أخذ اموال الناس بنية سيئة وطوية خبيثة بقصد الجحود والانكار واكل اموالهم بالباطل والخديعة والحيلة والمكر فان الله يوافيه بجزاء نيته وخبث طويته . فيفتح عليه ابواب المصائب والبلايا والشرور والفتن التي تؤدي الى ابادته ، وتضييع ثروته ، تحقيقاً لما جاء في الحديث عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : من اخذ اموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد اتلافها اتلفه الله، واليك ايضا ماجاء في الحديث الشريف الذي نحن بصدد شرحه.

بينما كان سيدنا رسول الله ﷺ في مجلس ومعه بعض اصحابه (اذ أتى بجنازة فقالوا صل عليها) يا رسول الله فبادر صلوات الله وسلامه عليه بسأل عن صاحب الجنازة (فقال هل عليه دين) لانه عليه السلام كان قبل ان تفتح عليه الفتوح إذا أتي بمدين لا وفاء لدينه قال لاصحابه صلوا عليه ولا يصلي عليه هو تحذيراً من الدين وزجراً عن المماطلة كما ذكرناه آنفاً، ثم بعد ذلك صار يصلي على كل جنازة حضرها ويلتزم بالدين (قالوا لا قال فهل ترك شيئاً قالوا لا فصلى عليه ثم اتي بجنازة اخرى) ولا يزال النبي في مجلسه الاول بين اصحابه (فقالوا يا رسول الله صل عليها قال هل عليه دين قيل نعم قال فهل ترك شيئاً) يقوم بوفاء دينه (قالوا) ترك (ثلاثة دنانير) وكأنه ﷺ علم بقرائن الحال ان ماتركه بقي بقضاء دينه ولذا قام (فصلى عليها ثم اتي بالثالثة فقالوا صل عليها) يا رسول الله (قال هل ترك شيئاً قالوا لا قال فهل عليه دين قالوا نعم) عليه (ثلاثة دنانير قال صلوا على صاحبكم) وتوقف النبي ﷺ أن يصلي عليه لأنه لم يبرىء ذمته بحياته ، ولم يترك شيئاً يقوم بوفاء دينه بعد مماته . فساء الصحابة امره لما ان هذا المسكين سيحرم بركة صلاة النبي عليه ودعائه واستغفاره له . فانتدب الصحابي الجليل ابو قتادة الحارث بن

ربعي الانصاري قائلا :(صل عليه يارسول الله وعلي دينه) وفي رواية ابن ماجه من حديث ابي قتادة نفسه،فقال ابو قتادة :انا اتكفل به زاد الحاكم في حديث جابر فقال النبي ﷺ هما عليك وفي مالك والميت منها بريء ،قال :نعم فصلى عليه فجعل رسول الله ﷺ اذا لقي ابا قتادة يقول ماصنع الديناران حتى كان آخر ذلك ان قال قضيتها يارسول الله قال : الآن بردت عليه جلده . وهذا الضمان صحيح عند جمهور الفقهاء من غير رجوع في مال الميت (فصلى عليه) رسول الله ﷺ .

فيعلم من هذا أن وبال الدين عظيم ، وإثمه كبير عند الله تعالى ولا يسقط الا بأحد شيئين الاداء أو المسامحة وصاحب الدين مرهون بدينه في الآخرة ولو كان من أهل الجنة . والمدين معرض لذل المطالبة فضلا عما يورثه من الهموم والانكاد ومما أثر عن النبي ﷺ قوله (اياكم والدين فانه هم بالليل ومذلة بالنهار) فعلى العاقل الابتعاد عنه مهما امكنه ولا سيما ان النبي ﷺ تعوذ وامر بالتعوذ منه ،نسأل الله السلامة .

الدرس السابع عشر

اكمال الدين واتمامه

اخرج البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلا من اليهود قال له يا امير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال: أي آية هي؟ قال: اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ، فقال عمر قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة .

* * *

آية جليلة القدر عظيمة الموقع كبيرة الفائدة حسنة المغزى اختارها سبحانه ليختم بها كتابه الكريم، ووحيه المعجز، وقانونه الالهي، واحكام شريعته السمحة ، ودينه الحنيف .

ومن مزايا هذه الآية الكريمة التي انفردت بها عما بقي من السور والآيات . ان الله اكمل بها الدين بمعرفة الاحكام الشرعية من الفرائض والسنن والحدود والاحكام والحلال والحرام . ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض . وأتم بها النعمة على عباده المؤمنين بهدايتهم لاحكامه ، وتوفيقهم لمعرفة امره ونهيه وحلاله وحرامه، وانجازه سبحانه ماوعدهم به في قوله: (ولأتم نعمتي عليكم) فكان من تمام النعمة أن دخلوا مكة آمنين . وحجوا مطمئنين ، لم يخالطهم احد من المشركين . وأنه سبحانه في هذه الآية اختار لهذه الامة دين الاسلام وملة ابراهيم عليه السلام عن الاديان كلها بياناً لشرف هذا الدين ، واعتناء بامة

السيد الحكيم ﷺ كيف لا وقد نزل في مختلف الآيات والسور مايفيء عن مدحه والاطراء فيه والامر باتباعه والثناء عليه بمختلف انواع المدح والثناء . وحسبنا من ذلك قوله سبحانه : (إن الدين عند الله الاسلام) وقوله : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وهذا ما دعا كعب الاحبار وذلك قبل ان يسلم وكان معه نفر من اليهود أن يقول لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا لها عيداً) وأقنا لها محتفلا في كل عام نجدد ذكراها ونتدارس فضائلها الكثيرة ؛ وذكرياتها العطرة . فيبتدر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلا: (اي آية هي قال) كعب (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) فيجيبه امير المؤمنين بكل تؤدة وسكينة قائلا:(قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة) وفي رواية اسحاق بن قبيصة (نزلت يوم جمعة يوم عرفة وكلاهما بحمدالله لنا عيد) قال النووي معناه انا ماتركنا تعظيم ذلك اليوم والمكان ، اما المكان فهو عرفات وهو معظم الحج الذي هو احد اركان الاسلام ، واما الزمان فهو يوم الجمعة ويوم عرفة وهو يوم اجتمع فيه فضيلتان وشرفان ومعلوم تعظيمنا لكل منها فاذا اجتمعا زاد التعظيم فقد اتخذنا ذلك اليوم عيداً وعظمنا مكانه ايضاً وهذا كان في حجة الوداع الخ ..) فلله در عمر على هذا القول البليغ والجواب السديد . وروى علماء التفسير في كتبهم انه لما نزلت هذه الآية بكى عمر فقال له النبي ﷺ مايبكيك ياعمر فقال: ابكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فأما اذ كمل فانه لم يكمل شيء الا نقص قال: صدقت فكانت هذه الآية نعي رسول الله ﷺ عاش بعدها احدى وثمانين يوما ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الاول وقيل لاثنتي عشرة ليلة وهو الاصح سنة احدى عشرة من الهجرة .

الدرس الثامن عشر

الابتعاد عن مواطن التهم

اخرج البخاري في صحيحه عن صفية زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها انها جاءت رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الاواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ يقلبها حتى اذا بلغت باب المسجد عند باب ام سلمة مر رجلان من الانصار فسلما على النبي ﷺ فقال لهما النبي ﷺ: على رسلكما انما هي صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله، يارسول الله، وكبر عليهما، فقال النبي ﷺ: إن الشيطان يبلغ الانسان مبلغ الدم وإني خشيت ان يقذف في قلوبكما شيئاً.

***

اشتمل هذا الحديث الشريف على آداب سامية، وعظات بليغة عالية، وتنبيهات جليلة القدر كبيرة الفائدة. فلقد كان سيدنا رسول الله ﷺ مؤدباً ومعلماً وحكيماً ومرشداً بفعله وقوله، وكان ارأف باصحابه والمسلمين من آبائهم وامهاتهم، واخوانهم وقرابتهم. فمن شدة رأفته وبالغ رحمته وعظيم شفقته على امته ماسنبينه آتيا في شرح هذا الحديث الشريف.

وذلك بينما كان النبي ﷺ معتكفاً في مسجده بدار الهجرة في العشر الاواخر

الاعتكاف في اللغة: الملازمة على الشيء خيراً او شرا، وشرعا: اللبث في المسجد من شخص مخصوص بنية.

من رمضان (جاءت) زوجه أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها (تزوره فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب) أي ترد الى منزلها (فقام النبي ﷺ يقلبها حتى اذا بلغت باب المسجد عند باب ام سلمة مر رجلان من الانصار) قيل : هما اسيد بن حضير ،وعباد بن بشر ،وظاهر الحديث انه عليه السلام لم يجاوزمعها باب المسجد مع انه لافائدة لقلبها لباب المسجد قط لان قلبها انما كان لبعد بيتها لكن ثبت في رواية اخرى فذهب ﷺ معها حتى بيتها (فسلما على رسول الله ﷺ)وفي رواية فلما رأياه استحييا فرجعا (فقال لهما النبي ﷺ على رسلكما) يعني تأنيا في مشيتكما،او على هينتكما فليس شيء تكرهانه (انما هي صفية بنت حيي) بن اخطب وكان ابوها رئيس خيبر وهي زوجه ﷺ وانما قال لهما هذه المقالة دفعاً للشبهة ، وابعادا للريبة ، وايضاحا للحقيقة والواقع (فقالا) على سبيل التعجب (سبحان الله يا رسول الله) اي فانا ننزهك عن هذا الظن السيء والخاطر القبيح (وكبر عليهما) اي عظم وشق عليهما ماقاله لهما النبي عليه السلام (فقال النبي ﷺ) مبينا لهما كيد الشيطان ومداخله وكيف يوسوس للمرء بتخيل الظنون الفاسدة مما لاحقيقة له في الواقع بقوله : (ان الشيطان يبلغ الانسان مبلغ الدم) في الجسد ، وهو كناية عن قوة خبثه ، وشدة وسوسته ، (واني خشيت ان يقذف في قلوبكما شيئاً) ، ولم ينسبهما عليه السلام لظن السوء بفعلهما بصدق إيمانهما ،وحسن إسلامهما، ولكن خشي عليهما أن يوسوس الشيطان لهما ذلك فيفضي بهما الى الكفر المؤدي الى الهلاك وخلود النار ، فرحمة بهما وشفقة عليهما بادر ﷺ لاعلامهما ، وايضاح الامر لهما قائلا : (انما هي صفية بنت حيي)وهو تعليم لمن يأتي بعدهما اذا وقع له مثل ذلك، وقد روى الحاكم ان الامام الشافعي رضي الله عنه كان في مجلس ابن عيينة فسأله عن هذا الحديث فقال له الشافعي : انما قال لهما ذلك لانه خاف عليهما الكفر إن ظنا به التهمة فبادر الى اعلامهما نصيحة لهما قبل ان يقذف الشيطان في قلوبهما شيئاً يهلكان

به ، وروي عنه انه قال : علمنا رسول الله ﷺ اذا حدثنا نساءنا أو محارمنا على الطريق ان نقول هي محرمي حتى لاتتهم .

وفي هذا الحديث من الاحكام ان يبتعد المرء عن مواطن التهم ، ومواقف الريب ، واذا عرض له شيء من ذلك ان ينبه عليه كما فعل سيدنا رسول الله ﷺ ابعاداً للتهمة ، وكشفاً للحقيقة ، وخاصة ان كان ممن يقتدى بفعلهم ، ويسمع لهم كالعلماء واهل التقوي والصلاح لان ذلك سبب الى ابطال الانتفاع بهم .

الدرس التاسع عشر

عقاب من قتل نفسه

اخرج البخاري في صحيحه عن جندب رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : كان برجل جراح فقتل نفسه فقال الله تعالى : بدرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة.

* * *

جريمة موبقة ، وذنب كبير ، واثم مبين يودي بصاحبه الى الهلاك والعطب ، والخزي والعار في الدنيا ولعذاب الآخرة اشد واخزى ، وامر واقسى .

ولا يقدم على هذه الجريمة النكراء ، والعمل الشائن الا من ضل سعيه ، وفقد هداه ووعيه ، وخرج من حدود الانسانية ، الى الطباع البهيمية وعد في زمرة الجبناء الذين لايستطيعون مقاومة صعاب الامور ، وجدير بمثل اولئك أن يسموا بالمجانين الذين فقدوا عقلهم وصوابهم . وما رأيك بمن يبيد نفسه ، ويهدم بنيانه ، ويقوض أركانه ، ظنا منه انها ملك له يتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ، والعامل في حقله ، والغني في ثروته ، بل خانه فكره ، واخطأه ظنه ، فهي ملك لخالقها ومصورها ، ومبدعها وجاعلها في احسن تقويم ، وخير وضع . وهي اثر دال على عظيم قدرته ، وباهر صنعته ، كرمها وفخمها وفضلها على سائر ماخلق بما اودع فيها من سر عظيم ، وعقل راجح ، وفكر ثاقب ، واقتدار على النطق والتعبير على ماالشارت اليه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى : (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ومن اجترأ على إبادة هذا الهيكل الرباني ، والصنع الالهي فقد باء بغضب ومقت ، وطرد وبعد

من رحمة الله سبحانه ، وحرم الجنة ونعيمها التي وعد بها المتقون ، واعظم به من حرمان شديد خسر به الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وليعلم أن جنايته على نفسه كجنايته على غيره في الاثم والوبال بل اشد، وعند الامام ابي يوسف لايصلى على قاتل نفسه .

فعلى الشباب ان يتنبهوا الى هذه الآفة الممقوتة ، والخطر الهائل ، وليقلعوا عنها فهي من أشر الاخلاق واسوأ العادات ، وما بال كثير منهم عند حدوث ضائقة مالية — على مايزعمون — او عدم توفر مايشتهون ، يعمدون الى ازهاق ارواحهم ، وابادة انفسهم ، فليتق الله الشباب في مثل هذه الاعمال ، وليعودا الى حظيرة دينهم الحنيف ، وتعاليمه السامية .

الدرس العشرون

الابتعاد عن الشبهات

اخرج البخاري في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحلال بين والحرام بين وبينها مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك ان يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في ارضه محارمه، ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله، واذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

* * *

هذا حديث كبير الموقع، عظيم الفائدة، جليل القدر لما اشتمل عليه من الاحكام الكثيرة، والفوائد الغزيرة، وقد اجمع العلماء على جلالة قدره ووصفوه بالاوصاف البليغة الحسنة، قال ابو داود السجستاني: الاسلام يدور على اربعة احاديث، ذكر منها هذا الحديث.

ويرشدنا السيد الحكيم ﷺ في هذا الحديث الشريف الى الابتعاد عن مواطن الشبه ومواقف الريب، ومواضع الظنون والتهم، ويبين لنا الحلال والحرام وما يدور بينها من المشتبهات فهو يقول: (الحلال بين) واضح وهو ما أذن الشارع بتعاطيه بنص القرآن الكريم أو السنة المطهرة من كلام السيد الحكيم ﷺ وذلك كحل الطيبات بقوله تعالى (أحل لكم الطيبات) (والحرام بين) وهو ما نهى الشارع عن تعاطيه وامر بالانكفاف عنه بنص القرآن او كلام الرسول عليه السلام وذلك كتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكقوله سبحانه: (حرمت عليكم امهاتكم

وبناتكم) الى آخر الآية الكريمة (وبينها مشبهات) اي شبهت بغيرها وهي الوسائط التي يكتنفها دليلان من الطرفين فمن ملحق لها بطرف الحـــلال لاقتضاء الدليل الشرعي وشبه لها فيه ، ومن ملحق لها بطرف الحرام لاقتضاء الدليل وشبه لها فيه من وجه آخر ،فتتنازع آراء العلماء والمجتهدين بالحظر والاباحة ، او الفعل والترك فمن قائل :انه حلال ومن قائل : انه حرام لتعارض الادلة والنصوص فالورع الترك في مثل هذه الاحوال وذلك كلحوم الحمر الاهلية،وكل ذي ناب من السباع اومخلب من الطير فان ظاهر الحصر بقوله تعالى في الآية الكريمة:(قل لا أجد فيما اوحي الي محرما على طاعم يطعمه إلا ان يكون ميتة او دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به) فتدل على حل ماذكرناه ،وجاء في الحديث عن النبي ﷺ النهي عنها،ولهذا اختلف العلماء في القول بحلها وعدمه . ومن المشبهات ايضاً ماجاء في حديث الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : اختصم سعد بن ابي وقاص وعبد بن زمعة في غلام فقال سعد : يا رسول الله هذا ابن اخي عتبة بن ابي وقاص عهد الي انه ابنه انظر الى شبهه . وقال عبد بن زمعة : هذا اخي يارسول الله،ولد على فراش ابي من وليدته .فنظر رسول الله ﷺ فرأى شبهاً بيناً بعتبة فقال: هو لك يا عبد بن زمعة الولد للفراش وللعاهر الحجر واحتجبي منه يا سودة،فلم تره سودة قط . فقد حكم رسول الله ﷺ بالولد للفراش وانه لزمعة على الظاهر وانه اخو سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ وذلك على سبيل التغليب لا على سبيل القطع، وامر سودة بالاحتجاب منه للشبهة الواقعة والاخذ بالاحوط ومن هذا الباب ايضاً الامور التي لاتطمئن اليها النفس ولا يركن اليها الضمير فتركها والابتعاد عنها خير وأولى على حد قوله عليه السلام في حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما (دع مايريبك الى مالا يريبك) رواه الترمذي،وكتركه عليه السلام التمرة الساقطة على الارض خشية أن تكون صدقة فقال : (لولا أن تكون صدقة لأكلتها) ومنها ماجاء في حديث عدي بن حاتم انه قال يا رسول الله ، اني ارسل كلبي واسمي عليه

فأجد معه على الصيد كلباً آخر، قال: لا تأكل انما سميت على كلبك ولم تسم على غيره) فلم يفته بالحل خشية ان يكون الكلب الذي قتله غير مسمى عليه .

وليس من باب ترك المشتبهات مايفعله بعض العامة من الجهلة كترك استعمال ماء مطلق لم يتغير شيء من اوصافه خشية تقدير نجاسة فيه لاعلم له بها، او كترك الصلاة بمكان لا أثر فيه للنجاسة مخافة أن يكون به بول قد جف وما اشبهه ، فليس هذا من الورع في شيء وإنما هو نتيجة هوس في عقل من يحترز منه وانقياده لوسوسة شيطانه ثم قال عليه السلام :(لا يعلمها كثير من الناس) أهي من قسم الحلال او الحرام وقد يعلمها بعضهم من أي الفريقين هي ، فالنسبة لمن علمها تكون من الحلال البين او الحرام البين. (فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ) يعني طلب البراءة (لعرضه) من الطعن (ودينه) من النقص . ويبين الرسول ﷺ في هذه الفقرة وما يليها أن من اتقى الشبهات وتحامى عنها، وطلب البراءة منها، كان ولا ريب أشد تحاميا وابتعاداً عن الحرام البين حرمته . ومن نشطت نفسه ، ودفعته جرأته الوقوع فيها ولم يتحاش المكروه ولم يأبه لخلاف الاولى كان استهتاره سبباً مؤدياً لوقوعه في الحرام، واقترافه الآثام . فعلى العاقل ان يقطع الطرق المؤدية ، والسبل الموصلة الى اقتراف محارم الله تعالى، وليجعل بينه وبين محارمه سبحانه حاجزاً منيعاً وسداً حصيناً .

(ومن وقع في الشبهات) التي اشار اليها النبي ﷺ في هذا الحديث فمن قائل: من العلماء إنه وقع في الحرام لقوله : (فقد استبرأ لعرضه ودينه) قالوا : ومن لم يستبرئ لعرضه ودينه فقد وقع في الحرام . وأرى أن هذا الرأي بعيداً حمله على سائر أنواع المشتبهات ولان صح حمله على بعضها فلا يصح حمله على الباقي . وقال آخرون هي حلال بدليل قوله في الحديث : (كالراعي يرعى حول الحمى) ففيه دلالة على أنه حلال وأن من الورع تركه . وطائفة توقفت عن القول بانها من الحلال او الحرام وتوقفها من باب الورع ايضاً .

ثم ضرب عليه السلام مثلا لمن يحوم حول الشبهات بقوله : (كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه) وهذا مثل ضربه النبي ﷺ لمحارم الله تعالى التي نهى عباده أن يقربوها . وذلك على عادة الملوك والسلاطين أن تحمي أرضا وتنادي

في الناس بتوعد العقوبة لمن يقربها، فالراعي الحذر الفطن يبتعد عنها ، ولا يقرب منها مخافة الوقوع فيها . واما من قرب من الرعاة منها ولا يأمن أن تشرد شاة فتقع فيها . وكذلك المؤمن الحذر يبتعد عن الشبهات مخافة الوقوع في الحرام فيأثم .

وللسلف الصالح حكايات بليغة وقصص عجيبة دالة على شدة ورعهم ، وقوة ايمانهم، وذلك كترك ابن ادهم اجرته لشكه في وفاء عمله وطوى من جوع شديد. وكما أثر عن الامام النووي رضي الله عنه انه مكث مدة اقامته بالشام لا يأكل من ثمارها لما قيل: إن في بساتينها بستاناً ليتيم . ومكثت السيدة بديعة الايجية بمكة اكثر من ثلاثين سنة لا تأكل مما يجلب من بجيلة من ثمار ولحوم وغيرهما لما قيل: إنهم لا يورثون البنات . وامتنع ابوها نور الدين من تناول تمر المدينة لما ذكر له انهم لا يزكون . وقالت أخت بشر الحافي للامام احمد بن حنبل انا نغزل على سطوحنا فيمر بنا مشاعل الظاهرية ويقع الشعاع علينا أيجوز لنا الغزل في شعاعها فقال :من انت عافاك الله فقالت : اخت بشر الحافي فبكى احمد رحمه الله وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق لا تغزلي في شعاعها ، والحكايات في هذا الموضوع عن السلف اكثر من أن تحصى (ألا وإن لكل ملك) من ملوك العرب (حمى) يحميه لرعي مواشيه وتوعد من رعى بغير اذنه بالعقوبة والبطش (ألا وان حمى الله في ارضه محارمه) يعني معاصيه التي حظرها على عباده كالزنا والسرقة والغلول وشهادة الزور وغيرهم من الجرائم والموبقات (ألا وان في الجسد مضغة) اي قطعة لحم سميت بذلك لانها قدر ما يمضغ في الفم لصغرها وعبر بها عن مقدار القلب بحسب الرؤية الظاهرة . وانما المراد بالقلب هنا العقل الذي ميز الله به الانسان، وفضله به عن سائر الحيوان والمخلوقات،فهو قائد الجسم وسيد البدن والآمر الناهي لبقية الجوارح والاعضاء ، فصلاحه صلاح لها،وفساده فساد لها كما قال عليه السلام : (اذا صلحت)اي المضغة المعبر بها عن القلب والمراد به العقل (صلح الجسد كله) تبعا لها (واذا فسدت فسد الجسد كله) بالتبعية لها أيضا (ألا وهي القلب) وهناك القلب الصنوبري موزع الدم في عروق الجسم ومصلحه بعد فساده .

الدرس الحادي والعشرون

حرص النساء في عهده عليه السلام على مجالس العلم وثواب من مات لها أولاد

اخرج البخاري في صحيحه عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قالت النساء للنبي ﷺ:غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك،فوعدهن يومالقيهن فيه فوعظهن وامرهن،فكان فيما قال لهن:مامنكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا من النار فقالت امرأة منهن : واثنين قال : واثنين وفي رواية عن ابي هريرة رضي الله عنه لم يبلغوا الحنث .

* * *

يتجلى بوضوح تام في هذا الحديث الشريف مبلغ حرص النساءفي عهده ﷺ على حضور مجالس وعظه وارشاده ، وتعليمه وهديه وذلك لما وقر في صدورهن من ايمان صادق،وإسلام صحيح ورغبة في تعلم الاحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، مما دعاهن أن يقلن : يا رسول الله (غلبنا عليك الرجال) أي استأثروا دوننا بحضور مجالس وعظك وإصغائهم لاقوالك الحكيمة ، ونصائحك الثمينة ، ومايتزل عليك من الوحي المشتمل على آي القرآن الكريم والذكر الحكيم ، ونحن لاطاقة لنا على مزاحمتهم لنستمع كما يستمعون ،ونسترشد بهديك كما يسترشدون . (فاجعل لنا يوما من نفسك) أي من اختيارك لا اختيارنا . وفي تفويضهن الامر في تعيين اليوم الى النبي ﷺ آداب جليلة لاتخفى على ذي لب سليم،وعقل صحيح ، وحرصهن

التام على راحته ﷺ ، (فوعدهن) صلوات الله وسلامه عليه (يوماً لقيهن فيه فوعظهن) والتقدير فوفى بوعده فلقيهن فوعظهن (وامرهن) بامور شرعية. ورغبهن بالمحافظة على اوامر الدين وآدابه وأداء الصدقة وحذرهن مخالفة الاوامر والوقوع في المحظورات وغير ذلك من النصائح والارشاد (فكان مما قال لهن) أيضاً في موعظته عليه السلام (مامنكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان) أي التقديم (حجابا) حاجزاً منيعاً (من النار فقالت امرأة منهن) والقائلة: هي ام سليم وقيل: غيرها (واثنين) وكأنها فهمت من تحديد العدد بثلاثة الحصر وشوقها الى سؤاله عليه السلام ماسمعت مايكون من الثواب العظيم والاجر الكبير عند الله تعالى لمن مات لها ثلاثة من ولدها ، فسألت عن حكم الاثنين هل يلتحق بالثلاثة (قال واثنين) فلها حكم الثلاثة وذلك بتوقيف منه عليه السلام (وفي رواية عن ابي هريرة رضي الله عنه لم يبلغوا الحنث) والحنث: الاثم، والمراد أنهم ماتوا قبل سن البلوغ والتكليف فلم يكتب الحنث عليهم . والحكمة في حصر الثواب بمن لم يبلغ الحنث أن القلوب بهم أعلق ، فلا ينسب اليهم عقوق اذ ذاك ، والمصيبة عند النساء بهم اشد لقيام وقت الحضانة . ولا يختص الثواب بالنساء بل مثلهن في ذلك الرجال .

وقد جاء في ثواب الوالدين وما تصل اليه الاولاد من النعيم احاديث كثيرة عن النبي ﷺ فمنها ماروي عن ابي حيان قال : قلت لابي هريرة : حدثني شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ تطيب به انفسنا عن موتانا ، قال نعم، صغارهم دعاميص[1] الجنة يتلقى احدهم أباه فيأخذ بثوبه فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة رواه مسلم. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قدم ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كانوا له حصنا حصيناً من النار . فقال ابو ذر قدمت اثنين

---

(١) الدعاميص جمع دعموص وهو الدخال في الامور . ومعناه انهم سياحون في الجنة دخالون في منازلها لا يمنعون من موضع منها كما أن الصبيان في الدنيا لا يمنعون من دخول الحرم .

قال : واثنين ، فقال ابي بن كعب سيد القراء : لقد قدمت واحداً ، قال وواحداً، ولكن انما ذلك عند الصدمة الاولى رواه الترمذي وابن ماجه . وعن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :أولاد المؤمنين في جبل في الجنة يكفلهم ابراهيم وسارة حتى يردهم الى آبائهم يوم القيامة رواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين .

ويؤخذ مما تقدم حرص الصحابيات رضوان الله عليهن على التفقه في الدين ، ومطالبتهن للنبي ﷺ بتخصيص يوم يلقاهن فيه ليشاطرن الرجال في اعمال الخير والبر والاحسان وحضور مجالس العلم دليل كبير على إيمان النساء في عهده عليه السلام . فأكثر الله في زماننا منهن . وألهم نساءنا من الخير ما ألهم اسلافهن .